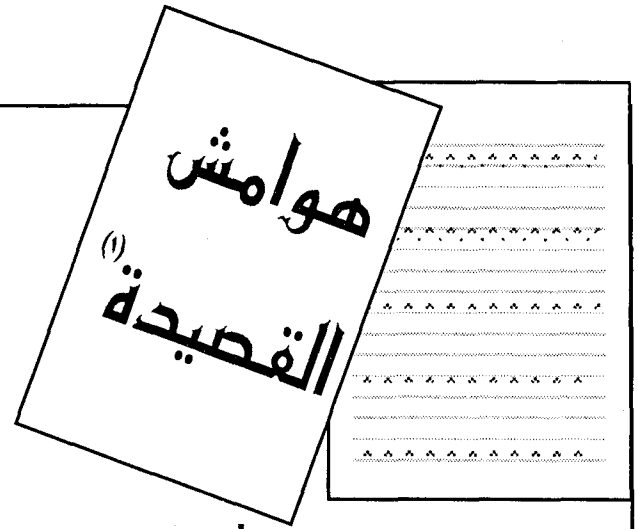

محمد القيسي

إلى آخر الدغل أمشي
إلى آخري

لا أقولُ وَداعاً لقرميدِها المُتنائي
لأزهارِهَا في الحديقةِ،
يَانعَةً بعدَ عَامينِ
منْ لَيلِ أُور العَميقِ،
وَلستُ أنا بالشَفيقِ عَليَّ،
سَأمشي إلى آخرِ الدغلِ،
أَدخلُ نهرَ تَفاصيلِهَا
لا أقولُ وَداعاً
حَمامُ مناديلِهَا
حَولَ رُوحي يُرفرفُ،
قِرْميدُهَا في الأعَالي يَضوعُ،
سَأمشي على قلّةِ الزادِ نحوي
وَحيدَ السُرَى
تحتَ قَوْسِ الغيابِ الغِنَائيِّ،
لَيستْ سِوايَ،
تُعبِّدُ خطَّ صُعودِي إلى شَفَقٍ،
منْ رَمادي الموزَّعِ في الأرضِ،
بُنٌّ عَلى شَفَتيهَا شَفيفٌ،
وَقمحٌ يُطرِّزُهَا
وَالسِهَامُ التي تَشتهيهَا عَديدهْ.

غَيرُ هَذا الذي في ثيابي أَنا
غيرُ هَذا الجُنوحِ إلى الرُّوحِ،
غيرُ صُدودي
وغيرُ بُكائيَ تحتَ غُبارِ الظهيرةِ،
غيرُ وُرودي وآنيتي
غـيـرُ حُـزني الذي في هَواكِ
تَرَعْرَعَ،
مُتَّخِذاً للهلاليِّ شَكلاً حَديثاً
وَغيريَ غَيري
أنا طفلُكِ الثالثُ،
عمًّا قليل سنَقتلُهُ بيَدينَا معاً
مُسْبغينَ على الأُفقِ هَذا الجَلالَ
الحَزينَ،
سَأمشي إلى آخرِ الدَغلِ،
مَا منْ وَداع لشيءٍ
وَما منْ سَرادق منصوبَةٍ للعَزاءِ
وَمُستوحشاً
في مَداري أَجوسُ،
فَلا الأَبنوسُ معي
أو فَضائي إلى صَنْدَلٍ،
وَقبابٍ تُغنّي
تَركتُ حَمَاماتِ قلبي الثلاث هُناكَ
تَركتُ على مقعدٍ،
أُغنياتي الشَهيدةُ

قُلتُ لا تَستقيمُ سُهوليَ،
دون رياحِ جِبَالِكِ،
في لَيْلِ شَالِكِ،
لا يَطْلُعَ الفِطْرُ أو
يَتَفَتَّحُ نوَّارُ بِيسَانَ قُربي بِلا
نَفَحاتِ يَديكِ،
الفَراغُ زحامٌ على شرفتي
حيث تَحتشِدُ الجَنَبَاتُ بريشِ
العَصَافيرِ،
وَالقَشِّ،
بَعضُ القصَاصَاتِ طيَّرَها الريحُ
منْ
شُرُفَاتِ الجِوارِ، وَحَطَّتْ هُنا
أُصُصٌ لِلنَبَاتِ بِلا خُضرةٍ
حَيثُ بَاتَ الخريفُ
قَريباً
وَيَبعثُ لي بِتَحيَّاتِهِ،
في القَصيدَه

مَنْ سَيَزْجُرُ هَذا الخَريفَ لأجلي
فَقَافيتي يَا بَعيدَةُ،
جدُّ بَعيدَه

سَادراً في الضَلالَةِ، لا أَنتهي

(*) القصيدة هي «ايّها المتدارك كيف أُحيط بهذا الضريح»، ونُشرت في الآداب في العدد الماضي.

منكِ،
لا تنتهي سَرَوَاتِيَ،
في جُبَّتي حَسَرَاتُ المُغنّينَ،
رُوحٌ غريبٌ يلوبُ،
حُطامُ كَمَنْجَاتِ صَيفٍ تلاشَى
تَماثيلُ مكسورةٌ في دَواليبَ،
أقنعةٌ،
وَجِرارٌ مُصدَّعَةٌ
وَأُطلُّ عَلى مَسْرَحي
خَاوياً كَنَهارٍ بلا قُبلةٍ،
وُزرائي وَرائي، وَغيمةُ قلبيْ طَريدَهْ

وَأُواصلُ في الدغلِ أبعدَ في
غَزَلي وَقُطوفي
أُواصلُ خَفْقَ دُفوفي
وَأَرجو مِنَ الرُّوحِ أَنْ لا
تخونَ الرنينَ،
وَأَنْ لا تهونَ،
إذا جدَّ أَمرٌ،
وَجمَّلَ هذا المَساءُ لَها نُزهةً
عنْ بَراريكِ،
أَوّاهِ، رُوحي الوَحيدهْ

تَملتْ بأفانينِ هَذا الدُّوارِ،
وَطَافتْ حُدودَ الميادينِ،
ما في البَساتينِ منكِ سِواكِ،
وَليسَ لجَلجامشَ الآنَ من حُجَّةٍ
لَيس لي
غيرُ هَذا الركونِ،
إلى مَا رَأى
وَحَياتي الجديدَه
وَإلى آخرِ الدغلِ أمشي..
إلى آخري.

لندن ١٩٩٥/٩/١

بكى الياسمين

يُشْبِهُ الحُزْنُ مَا بيَ هَذا المسَاءْ
المَواعيدُ مَسْرُوقَةٌ
لا تَجيءُ مِنَ الوَقتِ،
إلاَّ ليَخْطفَها الوَقتُ،
حَتى لَيَفْرَغَ منّي الإنَاءْ

••

وَيَقولُ الصَدى
لا أراكِ
غَدا
وَيَقولُ ليَ المَغْرِبُ
زَفْرةً
زَفرَةً
نَذْهَبُ

••

يَذهَبُ الوَقتُ منَّا إلى حَيثُ نَجهَلُ،
يَذْهَبُ وَرْدُ الطَريقِ
الحَدائِقُ
وَالشَمْسُ
أشياؤنا في الظَهيرةِ
صُحبتُنا في النبيذِ
«أغاني الحَقيبةِ»
يذْهَبُ هَذا الرَحيقُ
وَتَذهبُ نَحوَ حُقولِ الفَراغِ
أَصابعُنا
حَيثُ لا قُبلةٌ أَو نَدى
وَيقولُ الصَدى
لا أراكِ
غداً

••

أوقفي هَذه العَرَباتِ
أوقفي الرّيحَ
كَيْ لا يَطولَ الأَنينُ
توزَّعَ بَينَ التَضاريسِ هَذا الحَنينُ
بَكَى اليَاسَمينُ
بَكَى
وَبَكى تَحتَ شُرفَةِ بَيتي الحَمامُ
بَكى في القَصيدِ الكَلامُ
أوقفي رحلةَ السَهم نَحوي
أوقفي هَذه العَرَباتِ
على العَتَباتِ
تَصيحُ الحجَارةُ فينا، تَصيحُ:
– إلى أَينَ؟
كُلُّ الجهاتِ عَدانَا سُدَى
فَاوقفي هَذه العَرَباتِ
يَقولُ الصَدى
هَلْ
أراكِ
غَدا.

لندن ١٩٩٥/١١/٦

عليل دفاعي عن الياسمين

قَصَبٌ هَذه الريحُ
تَهوى التباريحُ
دَاري
وَدَاري مُطَوَّقةٌ تَسهرُ الآنَ دُوني
وَدُوني يمرّون نحوَ كَواكبَ في
الغَيمِ
دُونيَ أهلي الخليّونَ

وَالإخوةُ الميّتونَ
عَـصـافـيـرُ عُـمـريَ في الزَرْعِ
وَالكيمياءِ
تَلاميذُ قلبيَ في الكَسْتَنَاءِ.
يَمرّونَ نَحوَ كواكبَ في الغَيمِ
يَقْتَطِفُونَ العَشيّاتِ تحتَ سَماءٍ
تَعودُ لَنا
قِطْعَةً
قِطْعَةً
وَيُدَارونَ بالنَاي همّاً حَديثاً
فَهلْ مَرّقُوا خَاطِفِينَ خَفيفينَ
عنْ قبرِ أُختي
وَألقوا السَلامَ عَليَّ
يُمرُونَ
أَلَمحُهُمْ في الظَلامِ
يَمرُّونَ نحوَ كَواكِبَ في الغَيمِ
بَيْنا أنا
سَـاهِرٌ في حِـرَاسَـةِ أَقـمـارِكِ
المُرتَجاةِ، ولا
لَيْلكِ غامِضٌ
أَو وُضُوحٌ يُتيحُ الوضوءَ
أزيـحُ عَـنِ الـقَـلْـبِ ثَـلـجَ السِـنـينِ
البَعيدةِ
مُلتمساً في المَرارةِ سَاحِلَ أغنيتي
رَاشِحاً بِالقوافي
بلا فَـرَس أعْـبُـرُ الدَاجِيَـاتِ إلى
مَقْتَلي
وَأُطوِّفُ لندنَ مُرتَعِشاً
مثل ريشةِ طَيرٍ حَزينٍ
فَقيراً إليكِ كَما
لو غَزَتْني جُيوشٌ بلا عَدَدٍ
وَاصطفَاني مَلاكُ النِهايةِ

يَلزمُني زَنْبَقٌ لِقَميصي
أَصابِعُ تَشْبكُني في انفِلاقِ النَهارِ
البَسيطِ
تَخافينَ يا إبنَةَ أُمّي، لماذا تَخافينَ؟
ماذا لو اني وَقفْتُ عَلى السُّورِ
بَعضَ الهُنَيْهاتِ
حَتى رَأى مَنْ رآني
قِبَالةَ وَجْهِكِ
مَاذَا لو انّي صَحبتُكِ لِلحفلِ
أَو شَاهدونا مَعاً آخرَ الليلِ
نعبرُ هَذا الزقاقَ
قريبيْنِ مِنْ نُورِ بَيتكِ
انتِ بإيقاعِكِ الكَنَسيِّ
بِلفْتَتِكِ الرَعويَّةِ
وَانا بِسُهومِ رَسولٍ
تَفطَّرَ عندَ حدُودِ القَرَنْفُلِ حُبّاً
أُتَمْتِمُ باسمكِ: مَائي قَليلٌ
وَأَرْفَعُ رايَتنا في الفَـضَـاءِ المُظلّلِ
بالرعشَةِ البَدنيَّةِ
مَا جئتُ أَسْعَى كأفعَى

أقولُ لَهمْ هَذه حُجّتِي وَذراعي
وَهَذا شِراعي
هَوَىً شَفَّ
وَاصْطَفَّ صَـفْـصَـافُ دِجْلَةَ حَـوْلَ
قِلاعي
وَتَوَّجَني في التياعي
فَهذِي المَسَلَّةُ رُوحي
وهَذا الضَبَابُ شُعاعي
وَقالَ يَراعي
دَمي في رِقاعي
عَليلٌ دِفَاعِي عَنِ اليَاسمينِ،

عَليلٌ دِفاعي
عَليلٌ مَقامي
عَليلٌ كَلامي
عَليلٌ ذهَابي إلى «السين» في آبَ
وَحشَةُ يَومي عَلى «التَيمْزِ»
هَذا النَشيدُ عَليلٌ
وَامّا نَبيذي فَمُرُّ
وَشَـجـوُ الأعـالي يُسَلْسِلُنِي في
المجرّةِ
كَيفَ أَمرُّ، وأخضَرُّ، أخضرُّ
يَا سَمَكَ الخَوفِ
أَخشى انْحباسي عَلى حَدِّ قَوسِكَ
أَخشَى يَبَاسِي عَلى حَدِّ نَبعٍ بَعيدٍ
وَأخشَى الذي يَتَوهَّجُ في داخلِي
مِنْ رِمَاحٍ تكِرُّ...

ادَّخَرْتُ حُروبي وَعُمري
ادَّخَرْتُ البِدَايةَ
حَتّى تَفتَّحَ نَوّارُ لَوْزكِ وَارتَعَشَتْ
كَائِناتي
فَكيفَ أُقيمُ مَراسِمَ صَامِتةً لِخُيولي
وَأَقْطُر كالسُمِّ
لا طَاقةً غيرُ حُبِّكِ
كَرَّسْتُني ليدَيْكِ وَخَفْقِ النَباتِ
وَكَرَّسْتُ قلبي لأُغنيةٍ
لم تَصِلْنِي
رَسَمتُ الحدودَ بدونِ حُدودٍ
وَقلتُ وُرودي إلى العـالمين لأزدانَ
أكثرَ
أَيقونَتي للفَضاءِ
يُباركُنِي الضَوءُ حينَ يُفاجئني بعدَ
ليلٍ طَويلٍ

عَلى بابِ مَولايَ لازلتُ أَطرقُ
يُشْفقُ، لكنّني
خَجِلاً منْ قُصوري
أُواصلُ فيكِ نُشوري
أُواصلُ نعنَاعَ حمدةَ، أَزفرُ
لا عَازفونَ هنا
أَو مزاميرُ تُتْلى
وَليسَ يؤازرُ رُوحي سَـــلامٌ وَلَوْ
كَاذباً
الخَوابي بلا حنطةٍ
زَادُ بَيتي وَشيكُ النَفاذِ
نَهاري كَليلُ الخُطى

مُنذُ أَوّلِ هَذا القَطَا
سَـاهِرٌ في حـراسَـةِ أقـمـارِكِ
المُرتَجاةِ
أُمشّطُ يَوماً سَلَفْ
وَأديرُ الظُنونَ
فَماذا تَغَيَّرَ في مَوكبِ الوَارِدَاتِ
إلى العَينِ
ماذا اختلَفْ؟

منذُ بَدءِ الخَليقَة وَالفُلْكِ
تأخذُكِ المركَباتُ بعيداً
وَأَرْجعُ في عَتمةِ المُنعطفْ
خَافقاً بالنهاياتِ
وَحدي عَلى حَافَةِ الليلِ
وَحدِي يُسامرُ وَحدي
وَيَرجفُ فيَّ السَعَفْ.

لندن ١٩٩٥/١١/٨

مشهد الدخان

وَدُخانٌ عَلى القَلبِ هَذا الدُّخانُ
دُخانٌ،
دُخانٌ

خَـــرجتُ مِنَ النّورِ أَم خَـــانَني
النَصُّ،
حـتى ليَـزدادَ أَو يَتـجـدَّدَ هَذا
الغيابُ،
وَتَنأى ظِلالُ النَهارِ،
وَينأى الأمانُ
دُخانٌ
دُخانُ

تَدورُ بيَ الدائراتُ بَعيداً
رَمادُ الهواجسِ يَومي
وَيكسرُ قَلبي الرِهَانُ
دُخانٌ،
دُخانُ
وَيُظلمُ دُوني المَكانُ
دَرَجْتُ هُنا عُزلةً عُزلةً
وَرَماني الحَنَانُ
وَقلتُ أمرِّنُ حَالي عَلى الإحتمالِ،
وَيَصقلُ رُوحي المِرانُ
دُخانٌ،
دُخانُ

فَلا حَصَدَتْ كَلماتي سِوى الكَلماتِ،
وَلا خفَّ في جانبيَ اعتِمالٌ
وَلا وَاصَلَ الأُقحوانُ
سَكينةَ مَنْ بَاتَ في الظِلِّ،
مُكتفياً بالقليل،
وَأيّامُهُ جَيشَانُ
دُخانٌ،
دُخانُ

وَيَكتبُ مَا يَفْلقُ الصخرَ حُزناً
يُملْملُ هَذا الفَضاءَ
وَيَهفو لَهُ الخَفَقانُ
هَوَى إذْ رَوَى
وَاستبدَّ الجَوى
بِمجاميعِهِ،
وَتَقاطيعِهِ،
وَانتَهى المِهْرجانُ
دُخانٌ
دُخانُ

رَعيتُ الإوَزَّ وَأَطعمتُ بينَ يَديكِ
الحَمامَ،
وَمَا شَابَ قمحي زُؤَانُ
وَأَعرفُ ما كنتُ إلاّ الغُلامَ القَتيلَ،
وَسَيّافَ نَفسيَ، أُفْرِدْتُ جداً
فَمنْ أينَ يأتي ائتمانُ
دخانٌ،
دُخانُ

يَموتُ النَدى كُلَّ يَومٍ
وَيذْبُلُ في حُبِّه البَيلسَانُ
دُخانٌ على القلب هَذا الدُخانُ
دُخانٌ،
دُخانُ.

لندن ١٩٩٥/١١/٢٤